ملف
٧

# ياسر عرفات في ناظر الغرب: آخر أيقونات التحرر أم اللغز العصي؟

صبحي حديدي

## I

إذا طلب المرء مادّة «ياسر عرفات» في محرّك البحث الخاص بالموقع الشهير Amazon . com، أضخم مواقع الإنترنت المختصّة بالمبيعات الإلكترونية للكتب، والموادّ الثقافية الأخرى، ثمّ ضيّق البحث ليقتصر على الكتب وحدها (الأمر الذي يعني استبعاد الأعداد الخاصة من المجلات، والدوريات ذات الصلة، والأسطوانات، وأفلام الفيديو، والـDVD والأقراص المدمجة، والرسوم واللوحات . . .)، فإنّ المحرّك سوف يعطيه ـ حتى تاريخ كتابة هذه السطور ـ ٨٦ كتاباً. وإذا استبعد المرء المطبوعات الرسمية والمنشورات الحكومية (وبينها نصوص الخُطَب الرسمية ومحاضر الاجتماعات وما إليها)، فإنّ النتيجة النهائية سوف تعطي ٨٠ كتاباً، وباللغة الإنكليزية وحدها. وإذا استخدم المرء الرياضة ذاتها وطلب مادّة «دافيد بن غوريون»، وسار خطوة خطوة تماماً كما

صبحي حديدي، كاتب وناقد سوري – باريس

في مثال مادّة «ياسر عرفات»، فإن المحرّك سيسفر عن . . . ٧٧!

هذه المقارنة لا تُساق على سبيل امتداح الرئيس الفلسطيني الراحل ياسر عرفات (١٩٢٩-٢٠٠٤)، وإنْ كان تثمين الرجل يدخل في صلب خلاصات هذه الرياضة، بل لكي تذكّر بأنّ الزعيم الإسرائيلي الذي وضع الدولة العبرية على الخارطة، وكان هذا يقتضي إزالة فلسطين من الخارطة ذاتها، لم يكن مالئ الدنيا وشاغل الناس أكثر من الزعيم الفلسطيني الذي أعاد فلسطين إلى الخارطة، بل إنّ الأخير تفوّق على الأوّل كما تقول الإحصائية السابقة. وهي مقارنة تُساق على سبيل التذكير بأنّ القضية الفلسطينية وحدها لم تكن باعث هذه المنافسة ذات المغزى، بل إنّ الشخص بذاته وفي ذاته كان أيضاً رافعة، أو لعلّه كان الرافعة بالتعريف.

وثمة بُعد ثالث بالغ الأهمية، هو أنّ ياسر عرفات كان التمثيل الرمزي الأخير، عملياً، لتراث في الكفاح المناهض للاستعمار والإمبريالية بدأ بعد الحرب العالمية الثانية على امتداد آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، وعُرف باسم «حركة التحرّر الوطني»، . لقد اتخذ هذا الكفاح العديد من الأشكال والأساليب، وسار وفق خطوط عقائدية متباينة، وبلغ ذروته في الستينيات والسبعينيات، قبل أن يشهد محاقاً سريعاً حين أخذت الحرب الباردة تضع أوزارها، وانهار «المعسكر الاشتراكي»، وتداعى نظام القطبين ليفسح المجال أمام هيمنة أمريكية ـ إمبريالية شبه مطلقة.

ومن الخير، والإنصاف المحض، أن لا ينسى أحد ـ وأن يتذكّر الفلسطينيون خصوصاً ـ أنّ ياسر عرفات ينتسب إلى تراث كفاحي تعدّدي مدهش ضمّ أسماء أخرى شغلت نضالاتها النصف الثاني من القرن العشرين، واحتلّت مواقع أيقونية خالدة في ذاكرة الشعوب: ستيف بيكو ونلسون مانديلا في جنوب أفريقيا، أميلكار كابرال في ساحل العاج، فرانز فانون في المارتينيك والجزائر، هو شي منه في فييتنام، جمال عبد الناصر في مصر والعالم العربي، كوامي نكروما في غانا، أحمد سيكوتوري في غينيا، وشي غيفارا في كوبا وأمريكا اللاتينية . . .

كذلك فإنّ ممّا يُسجّل فضيلةً خاصة لصالح عرفات أنّ حركة التحرّر التي قادها لم تكن شبيهة أبداً بسواها: ليست بعدُ على الخريطة، فضلاً عن أنّ «الشعب الفلسطيني» ذاته غير موجود في عُرف قوى كبرى عديدة؛ وهي حركة في المنفى، ضمن بحر من الأنظمة المعادية الاستبدادية، التابعة أو المفرّطة في الحقّ الفلسطيني؛ وخصمها الإسرائيلي مخفر متقدّم للإمبريالية عموماً، والولايات المتحدة خصوصاً، قويّ حصين منيع نووي، مدلّل في الغرب بأسره، مرفوع فوق

القانون الدولي، مستثنى من شرعة الأمم؛ وأخيراً، والأهمّ ربما، أنّ حركة التحرّر الوطني الفلسطينية كانت في الآن ذاته نقيض حركة عقائدية واسعة النفوذ والتأثير هي الصهيونية، تزعم أنها «حركة تحرّر» يهود العالم، وتتسلّح حتى النواجذ بعقدة الذنب التي حملها الغرب بعد أوشفيتز والمحرقة، وتحتكر عقدة الضحيّة الكونية الفريدة في عذاباتها والأوحد في حقوقها!

## II

ومن اليسير، تالياً، أن يتخيّل المرء الطبيعة المتنافرة للأعمال التي تناولت عرفات، بمعنى التعاطف أو الحقد، والصدق أو التزييف، والموضوعية أو الانحياز الأعمى، والرصانة أو الميلودراما. خذوا هذا المثال الأوّل: جون والاك وجانيت والاك أصدرا كتاباً ضخماً بعنوان «عرفات: في أعين الناظر»(١)، يقع في أكثر من ٥٤٠ صفحة، وكتب شمعون بيريس مقدّمة إحدى طبعاته، وتنطوي فصوله على عناوين مثيرة مثل: «إماطة اللثام عن عرفات»، «اللغز في الأحجية»، «الجدار المقدّس»، «إخوة وأعداء»، «أيلول أسود/ أيلول أبيض»، «أقنية سرّية»، «محرّمات كيسنجر»، و«من أوسلو إلى الخليل: مصافحات الأيدي وغصّات القلوب»...

كيف يبدأ الكتاب؟ السطور الأولى، حيث يضع المؤلّف تصديراً خاصاً أو إهداء، يكتب جون وجانيت والاك التالي: «القرد في عين أمّه غزال... مَثَل عربي اقتبسه مناصر لمنظمة التحرير، على سبيل شرح الفارق في صورة عرفات عند الغرب وعند الفلسطينيين-! وماذا يقول الناشر على طيّة الطبعة المجلدة من الكتاب؟ هنا فقرة أولى: «من مصافحة ١٩٩٣ التاريخية مع إسحق رابين إلى التوتّر الراهن مع بنيامين نتنياهو، استأثر ياسر عرفات بمفاتيح السلام في الشرق الأوسط. ولقد حدث مراراً وتكراراً أن أُعلنت وفاته السياسية، ولكن الزعيم الفلسطيني كان ينهض ثانية مثل العنقاء لكي يتجاوز المعارضة. وبعد ستة أعوام من تحالفه مع صدّام حسين في حرب الخليج، يهلل له شعبه ويرى فيه صورة البطل، ويعتبر الكثيرون أنه صانع سلام. ومن خلال سلسلة اتفاقيات مرحلية انتقل من صورة المنبوذ إلى الرئيس والزعيم البرلماني للحكومة الفلسطينية. وجهوده جلبت له جائزة نوبل للسلام»...

لاحظوا هذا البناء الخلفيّ والخفيّ للصورة السلبية، أو لتضخيم الاحتمالات السلبية في

معطيات محددة من الصورة:

ـ إذا كان عرفات هو الذي يستأثر بمفاتيح السلام في الشرق الأوسط، فإنه منطقياً واستطراداً صانع العراقيل والعقبات في وجه، أو حتى كاره، السلام الذي لم يتحقق حتى الآن.

ـ وإذا صحّ أنّ وفاته السياسية أُعلنت مراراً وتكراراً، فإنه لم يكن يعود كالعنقاء لكي يتجاوز المصاعب والأزمات والمآزق، بل لكي يتجاوز... المعارضة! إنه إذاً، منطقياً واستطراداً، رجل لا ـ ديمقراطي ما دامت روحه السياسية لا تُردّ إليه إلا لكي «يتجاوز المعارضة-!

« لقد تحالف مع صدّام. هل فعل، حقاً؟ وهل كان موقفه السياسي يندرج في صيغة «التحالف»، أياً كانت حدود المصطلح السياسية القصوى؟

ـ ومع ذلك فإنّ شعبه يهلل له ويعتبره بطلاً. الترجمة الأخرى هي أنّ ذلك الشعب على شاكلة قائده: متحالف مع صدّام حسين، بل ويرى عنصر البطولة في ذلك التحالف!

ـ انتقل من صورة المنبوذ Pariah إلى صورة الرئيس، ليس لأنه استحقّ ذلك في ناظر شعبه وبعد انتخابات ديمقراطية، بل بسبب «اتفاقيات مرحلية-! وهو ليس الزعيم التاريخي للشعب الفلسطيني، ورئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير، وقائد حركة «فتح»، بل «زعيم برلماني» ليس أكثر!

ـ وأخيراً، ما الذي جلب له جائزة نوبل للسلام؟ «جهوده»، وليس أفعاله وأقواله في سبيل السلام، وليست نضالاته وتضحياته التي جعلت ذلك السلام ممكناً وتلك الجائزة تحصيل حاصل، خصوصاً وأنها مُنحت مُثالثة مع رابين وبيريس... الأمر الذي لا يشير إليه الناشر!

ولا يكتمل هذا المثال الأوّل حتى نقتبس سطوراً، أولى بدورها، من التمهيد: «أذكر اسم ياسر عرفات، وسيقول لك الكثير من الغربيين أنّ عليه أن يحلق لحيته الوضيعة [والتعبير الإنكليزي أشدّ بذاءة في الواقع: Scruffy]، ويبدّل ثيابه بأخرى مدنية. إنه في نظرهم شيطان، ثقته الزائدة في نفسه وزيّ حرب العصابات الذي يرتديه يتطابقان تماماً مع صورة الإرهابي الشائعة». وللتذكير، هذا كلام كُتب بعد المصافحة التاريخية في البيت الأبيض، وبعد أن تبدّلت كثيراً صورة عرفات في المخيال الجمعي الغربي، بل وانخرطت جهات غربية في تلميع صورته وإعادة تقديمه في هيئة «الإرهابي» الذي انقلب إلى شريك في بناء السلام!

الكتاب، والمثال، الثاني هو «ما وراء الأسطورة: ياسر عرفات والثورة الفلسطينية»(٢)،

العمل الذي اشترك في كتابته أندرو غاورز وتوني ووكر، وهما اثنان من أبرز كتّاب صحيفة «فايننشيال تايمز» البريطانية الشهيرة. أنظروا، بادئ ذي بدء، ماذا يقول دانييل بايبس (الغنيّ عن التعريف!) في تقريظ هذا الكتاب: «إنه يروي قصة متماسكة، أكثرها جاذبية ذلك التحوّل الذي طرأ على عرفات، من مخلوق مغمور متخلف وحارس ليلي، يجوب شوارع بيروت سنة ١٩٦٥ في سيّارة فولكسفاغن متداعية، يدسّ في جيوب الصحافيين بيانات مفصّلة عن معارك وهمية مع إسرائيل، إلى ما هو عليه الآن: قائد أغنى حركة تحريرية في العالم، والرجل الأكثر ظهوراً في الأخبار، والشخصية الرسمية التي تُعامل معاملة رؤساء الدول في العالم بأسره. ووكر وغاورز يرصدان صعوده بمهارة ونزاهة، وإذا كنتَ تريد أن تفهم ياسر عرفات، فإنّ عندهما القصّة كاملة».

وبالطبع، إذا كانت هذه شهادة بايبس في الكتاب، فإننا لسنا بحاجة إلى شهادة أخرى أكثر إفصاحاً عن القيمة العلمية لكتاب ووكر وغاورز. و«النزاهة» التي يمتدحها بايبس تدور في الواقع حول هوس المؤلفين بالبرهنة على أنّ قيادة عرفات انطوت دائماً على الخداع والمراوغة والمناورة، وعلى كمّ أفواه المعارضين والاستئثار بالزعامة والاستبداد بالرأي، وخلق المآزق والأزمات بغرض البرهنة على قدرة فائقة في تجاوزها، وجعل الحلم في دولة فلسطينية أبعد منالاً ممّا كان قبل صعود عرفات، وأنّه لم يستبدل البندقية بغصن الزيتون في أية مرحلة من مراحل قيادته...

ورغم اعترافهما بأنّه منذ العام ١٩٦٨ بات «أكثر من رجل واحد، في ناظر الكثيرين»، فإنّ صورة عرفات ظلّت عندهما حبيسة المعادلة التالية: من «الإرهابي المنبوذ» بدأ، إلى «الإرهابي» حبيس مكتبه انتهى... وليس ثمة توسّط من أيّ نوع بين الأقصَيَين!

وإذْ يطلقان عليه صفة «الواهم الكبير»، فإنهما يزعمان الغوص عميقاً في دخيلة الرجل لاكتشاف أنّ «ما كان يحرّكه أكثر من أيّ نزوع آخر هو الخوف من أنّ الزمن لن يمكّنه من تجسيد ما يسعى إليه دون استكانة: هذه التي يسمّيها فلسطين»... نعم، التي يسمّيها عرفات فلسطين، أي تلك التي لا تُسمّى هكذا في عرف ووكر وغاورز. بل إنهما يعجبان من أنّ «مثقفة فلسطينية» مثل ليلى شهيد تمتدح «إنجاز عرفات الأكبر المتمثّل في تجسيد الإرادة الفلسطينية-! ويستغربان أكثر أن تذهب شهيد إلى حدّ التساؤل: «كيف سوى ذلك يمكن تفسير استعداد الكثير من الأمهات لإرسال أبنائهنّ كي يستشهدوا في سبيل القضية؟ لم تكن تلك الرغبة مرضاة لعرفات أو لأيّ

شخص آخر، بل في سبيل قضية أكبر من الجميع».

الكتاب، والمثال، الثالث يغرّد خارج السرب دون ريب، لأنه ينصف عرفات والشعب الفلسطيني سواء بسواء، وهذا في حدّ ذاته يكفي لكي يبدو عمل الصحافي البريطاني ألن هارت «عرفات: سيرة سياسية»(٣) خارج سياقات التيّار السائد في الغالبية الساحقة من الكتابات التي تناولت الموضوع. ألا يبدأ هارت كتابه من إهداء غير مألوف: «إلى أصدقائي الكثيرين، الفلسطينيين والإسرائيليين واليهود الآخرين؛ وإلى كلّ مَن سيعطي السلام فرصة-؟ ألا يبدو هذا الكلام «هرطقة» بالمقارنة مع تصدير جون وجانيت والاك آنف الذكر، ومع «التقاليد» المرعيّة التي كانت تلتزم بها معظم دور النشر الغربية في زمن صدور الكتاب، سنة ١٩٨٤، حين كان الفلسطيني إرهابياً أوّلاً، وإرهابياً ثانياً، وإرهابياً عاشراً؟

أكثر من ذلك، في السطور الأولى من المقدّمة يكتب هارت ما يفوق الهرطقة ويبلغ مستوى «التجديف» ربما، حين يقول:

«هذا الكتاب يروي قصّة رحلتين.

الأولى، الرئيسية، هي رحلة عرفات في حقيقة وجود إسرائيل كقوّة عسكرية عظمى في المنطقة، وحاجة الفلسطينيين إلى التأقلم مع هذه الحقيقة، عن طريق وعيها بطريقة لم تكن تخطر على بال، إذا كان مقدّراً لهم أن يحصلوا ذات يوم على العدل في حدّه الأدنى.

الثانية، هي رحلتي أنا في حقيقة ياسر عرفات واكتشافي وجود شخصين يحملان الاسم ذاته. الأوّل هو ياسر عرفات الذي كان شخصية في الميثولوجيا الإسرائيلية. وحسب تلك الميثولوجيا، كان ياسر عرفات الرجل «الذي ينطوي قلبه على كراهية لا قرار لها»، وينوي استكمال العمل الذي بدأه أدولف هتلر لو سنحت له الفرصة. وأمّا ياسر عرفات الثاني فقد كان الحقيقي ابن الحياة، رئيس منظمة التحرير الفلسطينية».

وفصول الكتاب تتوزّع على ثلاثة أقسام، الأوّل فيها يرسم ما يشبه الـ «بروفيل» الإنساني لشخصية عرفات الرجل، والسبب الذي جعل هذه القضية الفلسطينية مشكلة دولية. القسم الثاني يتناول سيرة عرفات، وتأسيس حركة «فتح»، وسنوات العمل السرّي، والخلافات داخل تيّارات الحركة، وصعود المقاومة الفلسطينية، والصدام مع الأنظمة العربية. وهنا يبدو هارت، في

استعراضه لمختلف محطات حياة عرفات، وكأنه لا يتوقف مرّة واحدة عن طرح سؤال مركزي: هل كان الزعيم الفلسطيني يؤمن حقاً بإمكانية تحرير فلسطين، وعن طريق الكفاح المسلّح؟ وإذا كان الجواب بالنفي، فما الذي جعله يلحّ على العمل العسكري ويفرض خطّه على التيّارات الأخرى؟

الفصل الثالث، يسعى إلى البرهنة على أنّ عرفات كان، في نهاية المطاف، لا يقوم بتحرير فلسطين عسكرياً بقدر ما يُبقي القضية الفلسطينية حيّة حين حاولت إسرائيل ـ ومعها معظم الأنظمة العربية ـ تصفيتها نهائياً. وهذا الفصل فرصة هارت الثمينة لسرد ما يسمّيه «معجزة» القيادة العرفاتية، وكيف أفلح في إقناع غالبية شعبه ورفاق نضاله بتقديم تنازلات جوهرية من أجل السلام لم يكن من الممكن لأحد قبله أن يتجاسر على مجرّد التفكير فيها. وإذْ يستقي معلومات ثمينة من رفيقَي عرفات خليل الوزير (أبو جهاد) وصلاح خلف (أبو إياد) حول أسرار تلك السنوات الحاسمة، فإنّ ما يشدّ هارت هو ذلك الانبعاث المدهش الذي أعقب حرب الخليج ١٩٩١، حين بدا أنّ عرفات انتهى مرّة وإلى الأبد، فعاد بعد أشهر معدودات أقوى ممّا كان عليه قبل محنة غزو العراق للكويت.

والكتاب ينتهي بتقييم هارت للموقع الذي يشغله عرفات في التاريخ، وكيف أنّ صانع السلام هذا «يساعد إسرائيل في إنقاذ نفسها من نفسها». وهذه خلاصة دراماتيكية تسير على نقيض ما آمن به، وحاول البرهنة عليه عشرات الباحثين والمؤرّخين والصحافيين الذين كتبوا عن عرفات، وعلى رأسهم بالطبع الغالبية الساحقة من الإسرائيليين. بين هؤلاء المؤرّخ إفرايم كارش في كتابه «حرب عرفات: الرجل ومعركته لغزو إسرائيل»(٤)، والذي يحاجج ببساطة أنّ الرئيس الفلسطيني الراحل لم يعتزم أبداً تنفيذ أيّ من تعهدّات السلام التي التزم بها، وأنه في حقيقة الأمر «استخدم» السلام على سبيل الخديعة الإستراتيجية الساعية إلى إدامة هدفه الأبدي المتمثّل في تدمير إسرائيل. ومن العجيب أنّ أبرز الوقائع التي يتكئ عليها كارش في مناقشة زعمه هذا، ليست سوى تهرّب عرفات من إلغاء الميثاق الوطني الفلسطيني!

وفي يقين كارش كان عرفات هو مهندس انتفاضة الأقصى، بما في ذلك (لأنّ الانتفاضة كانت في نظره تنطوي على) تنظيم العمليات الانتحارية، واستهداف المدنيين الإسرائيليين، وذلك قبل وقت طويل من الاتكاء على «أعمال الشغب» التي وقعت إثر زيارة أرئيل شارون للحرم الشريف!

وهكذا فإنّ انتفاضة الأقصى كانت تخدم على أتمّ وجه استرايجية عرفات «الخبيثة» في استخدام السلام على غرار التضحية بالبيدق في افتتاح لعبة شطرنج، بغية تدعيم وتقوية الآلة الكفيلة بتدمير إسرائيل! لكنّ كارش يبدي الكثير من السخاء تجاه الشعب الفلسطيني الذي، على عكس زعيمه التاريخي، يريد السلام بصدق، ولا يُلام على أفعال عرفات! الذي يستحقّ اللوم بالفعل، فريقان: زعماء إسرائيل الذين صدّقوا عرفات وانخدعوا بأقواله، وزعماء «العالم المتمدّن» الذين عاملوا عرفات معاملة رئيس دولة وكانوا في هذا يمارسون «سذاجة إجرامية-!

خذوا بعض عناوين فصول الكتاب عيّنةَ على مضمونه: «حصان طروادة»، «رخصة للقتل»، «اكره جارك»، «الإرهاب حتى النصر»، «أعمى في غزّة»، «مواجهة في كامب دافيد»، « العدّ العكسي نحو الحرب»، «قطاف ثمار العنف». . . وكما فعل جون وجانيت والاك في مَثَل القرد الذي في عين أمّه غزال، يبدأ كارش كتابه باقتباس من «أحد المقرّبين» من عرفات، ولا يفصح عن هويّته بالطبع، يقول: «إذا تعثّر عرفات ذات مرّة ونطق الحقيقة، فإنه لن يقول سوى: اغفروا لي، رجاءً»! لماذا؟ خذوا هذا التفسير، الأكثر حماقة وسخفاً، الذي يتبنّاه كارش: «من مهازل التاريخ أنّ الشخص الفلسطيني الأشهر في العالم لا تنطبق عليه شروط الفلسطيني كما حدّدها الشخص الأشهر نفسه. ذلك لأنّ الفلسطينيين، طبقاً للميثاق الوطني الفلسطيني الذي أقرّته منظمة التحرير الفلسطينية في عام ١٩٦٤ وعُدّل بعد أربع سنوات ليصبح وثيقة العقيدة الأهمّ، هم العرب الذين كانوا حتى العام ١٩٤٨ يقيمون في فلسطين بصفة دائمة، سواء مكثوا فيها أو طُردوا منها». ومحمد عبد الرحمن عبد الرؤوف عرفات القدوة الحسيني ولد في القاهرة، في ٢٤ آب (أغسطس) ١٩٢٩، من أصل مصري-غزّاوي، ولهذا فهو. . . ليس فلسطينياً أصلاً!

ولأنه ليس فلسطينياً، ولأنّ الإرهابي مرّة إرهابيّ على الدوام، فإنّ عرفات «رفض» ما تقدّمت به إسرائيل من عروض سلام في كامب دافيد، إذ إنه «لم يكن قادراً، ولا راغباً، في إنهاء النزاع. ولم يكن من الممكن لعرفات أن يوقّع على أيّ شيء لا يستهدف تدمير دولة إسرائيل، من خلال انسحابها إلى حدود لا يمكن الدفاع عنها وإغراقها بملايين اللاجئين الفلسطينيين تطبيقاً لما يُسمّى حقّ العودة». هكذا، وبهذا التبسيط المدهش، يفسّر البروفيسور الإسرائيلي-رئيس قسم الدراسات المتوسطية في جامعة King's College، لندن!-سبب انهيار محادثات كامب دافيد، ويبدو بالفعل وكأنه لا يفترض وجود قارئ واحد نصف ذكيّ يمكن أن يضع الأمر في سياقات

أخرى مغايرة كشفت عنها الصحافة الإسرائيلية نفسها!

اللغز، أو تمثيلات السياسة في هيئة ألغاز غامضة خافية، هو ما يبحث عنه إسرائيلي آخر يختلف عن كارش في أنه عايش النزاع على الأرض طيلة ثلاثة عقود، ويتابع مادّته من موقع الصحافي الخبير على الأرض (في فلسطين المحتلة، وقبلها في تونس) وليس الأكاديمي الحاقد حتى على أبناء جلدته من «المؤرّخين الجدد». داني روبنشتاين في كتابه «لغز عرفات»(٥) يسأل، جادّاً كلّ الجدّ بالطبع: مَن هو على وجه الدقّة سيّد النجاة هذا، الرجل الأكثر شهرة عند الناس بين الزعماء السياسيين في العالم، ولكن الرجل ـ الأحجية حتى عند أقرب المقرّبين منه؟

سؤاله هذا بُني على سلسلة متعاقبة من الإخفاقات التي كان عرفات يفلح دائماً في تحويلها إلى نجاحات: في عام ١٩٦٧، حين ظهر للمرّة الأولى على مستوى دولي، كان مجرّد إرهابي سفّاك دماء؛ وحين أجبرته إسرائيل على مغادرة بيروت إثر اجتياح لبنان سنة ١٩٨٢، قيل إنه أفلس وانتهى، فأطلّ أكثر قوّة من خلال انتفاضة ١٩٨٧؛ وحين نعاه سياسياً معظم المراقبين بعد موقفه من احتلال العراق للكويت، ظهر من جديد في إهاب رجل السلام والمدير الحقيقي للجانب الفلسطيني في كواليس أوسلو؛ وباختصار، من فدائي وزعيم حرب عصابات و«إرهابي»، إلى رئيس دولة حتى قبل أن تقوم الدولة عملياً... أليس في مسار كهذا أكثر من لغز؟

إنّ بعض الهوس في إسباغ الغموض على شخصية عرفات نابع، للإنصاف، من هذا الطراز العجيب الذي اتخذته أقدار الرجل وتاريخه المتلاطم المضطرم. ولكنه أيضاً نابع من تلك الرغبة الدفينة في ردّ الزعيم السياسي إلى عوالم ميتافيزيقية وصوفية صرفية، لا تتلاءم منطقياً مع المحتوى العقلاني والذرائعي الذي يجب أن تتّصف به الزعامة السياسية. وروبنشتاين لا يخفي انسياقه خلف ذلك الهوس حين يكتب: «طيلة الـ ٢٨ سنة الماضية كتبت اسم ياسر عرفات كلّ يوم تقريباً. التقيت به في مناسبات عديدة، وقرأت مقداراً هائلاً من الموادّ عنه: كتب، أعمال بحثية، وتقارير صحفية يومية. وعلى امتداد الأعوام سمعت وأجريت العديد من الحوارات حول عرفات، وتهيأ لي أنني أعرفه جيداً. من المشكوك فيه، مع ذلك، أن يستطيع أحد إطلاق ذلك الزعم... وكتابي هذا أشبه بتفكيك لغز، بمحاولة لإماطة اللثام عن شخصية ياسر عرفات وما يكتنفها من غموض ومفارقة»...

ما هو مثير في الكتاب أنّ روبنشتاين يبلغ الحصيلة التالية التي لا تخلو من دلالات مدهشة:

رغم غموض شخصيته، أو بسبب ذلك الغموض ربما، لعب ياسر عرفات دور «الرمز» الذي احتاج إليه شعبه من جهة أولى، ودور «اللغز» الذي كان يثير حفيظة الغرب وكراهية إسرائيل من جهة ثانية. حتى عاداته في ارتداء الثياب العسكرية مقترنة بالكوفية الفلسطينية، وإطلاق لحيته، والعمل في الهزيع الأخير من الليل. . . كانت استجابات لحاجة المخيّلة الشعبية الفلسطينية، ونجاح عرفات قائم على قدرته في خلق الأسطورة التي تشهد اندماج الشخص بالقضية. بيد أنّ روبنشتاين كان بين أبرز الإسرائيليين الذي ردّوا إلى عرفات وحده فضل انتزاع استقلال القرار الوطني الفلسطيني من شدق الأنظمة العربية، وبالتالي إجبار الدولة العبرية والولايات المتحدة والغرب عموماً على التعاطي مع ممثّلي الشعب الفلسطيني أنفسهم، وليس ممثّلي الأنظمة الذين جهدوا لفرض الوصاية على القضية الفلسطينية منذ البدء. وبهذا فإنّ روبنشتاين يعطي رجل «الرمز» بعض المصداقية التي يستحقها رجل السياسة، وفي الآن ذاته يحرّره ـ موضوعياً وليس طواعية في واقع الأمر ـ من بعض سمات رجل «اللغز»!

مقاربات التجريد هذه يلجأ إليها إسرائيلي ثالث هو أمنون كابليوك، في كتابه «عرفات الذي لا يُختزل»(٦)، مع فارق أنّ التجريد هذه المرّة يطمس تاريخ القضية والرجل القائد في قلب القضية، لصالح تضخيم تاريخ الرمز وتمثيلات الأسطورة. وكابليوك معروف بمواقفه المميّزة كما تعكسها عناوين أعماله: «صبرا وشاتيلا: تحقيق حول مجزرة»، ١٩٨٢؛ و«الخليل: مجزرة معلنة»، ١٩٩٤؛ و«رابين: اغتيال سياسي»، ١٩٩٦. وإذا كان هذا الكتاب الجديد والضخم (٥٥٢صفحة، والذي صدر بالفرنسية فقط حتى الآن) بين أكثر ما كُتب عن عرفات نزاهة وموضوعية، فإنّ كابليوك عجز في المحصّلة عن تجاوز عقدة تقديم عرفات في حال من النواس الدائم بين القائد الرمزي والقائد السياسي، وبين الشيطان والملاك.

ومن العجب أنّ نلسون مانديلا، الذي قدّم للكتاب، يقول عكس ما يريدنا كابليوك أن نفهم: «سوف يبقى الرئيس عرفات، إلى الأبد، رمزاً للبطولة في ناظر جميع شعوب العالم المكافحة من أجل العدل والحرّية». مانديلا يقصد المحتوى السياسي حين يتحدّث عن الرمز، وكابليوك يقصد المحتوى الرمزي حين يتحدّث عن السياسة، ولهذا يتابع مانديلا قائلاً: إنّ القضية الفلسطينية موضوعة على الأجندة الدولية بفضل عرفات، وأنّ الرئيس الفلسطيني «حوّل الفلسطينيين من وضعية اللاجئين إلى وضعية الأمّة بأتمّ معنى للمصطلح». ولا يسكت مانديلا عن محنة عزل

عرفات على يد شارون، فيقول: إنّ المهانة التي تعرّض لها الزعيم الفلسطيني في رام الله «تُلحق الخزي بالمسؤولين عنها، وليس بعرفات».

وممّا يُسجّل لكابليوك أنه لا يتردّد في مقارنة عرفات مع الزعيم الفرنسي شارل ديغول: «اسم عرفات، مثل اسم ديغول، لا ينفصل عن القضية الوطنية لشعبه». وهذه المقارنة تقوده إلى تنزيه عرفات عن تأييد العمليات الانتحارية، وإلى تبيان حقيقة ما جرى في كامب دافيد وتقويض المزيد من عناصر الخرافة التي تقول إنّ عرفات رفض عروض السلام الإسرائيلية، أو تحويل جزء من أموال الإعانات الأوروبية إلى «حماس» أو «الجهاد الإسلامي». كذلك ينفرد كابليوك عن معظم كتّاب سيرة الرئيس الفلسطيني في تركيزه على حدثَين وقعا سنة النكبة ١٩٤٨، وكان لهما أبلغ الأثر في نفس عرفات الفتى: مقتل عبد القادر الحسيني، ومجزرة دير ياسين حين أجهزت عصابات «شتيرن» و«أرغون» الصهيونية على ٢٥٠ من الأطفال والنساء والرجال الفلسطينيين.

## III

ما لا يُختزل في شخصية ياسر عرفات يتمثّل، أيضاً، في الحقوق الأساسية التي أبى التفريط بها لأنها تخصّ شعبه ولا تخصّه، ولأنها روح شعبه وروح فلسطين.

وفي التراث الشفاهي لهنود أمريكا الشمالية تحوّلت الخطبة التقليدية، التي يلقيها الزعيم قبل تسليم الأرض للبيض وتوقيع اتفاق سلام معهم، إلى مزيج فريد من الدفاع الوجودي الحارّ عن هويّة الأرض وساكنيها من جهة، والرثاء المفعم بالحزن وضعف الحيلة والتسليم بالقضاء من جهة ثانية. وبصرف النظر عن مشروعية الطعن في مصداقية ناقلي تلك الخُطَب ومترجميها، والذين كانوا غالباً من البيض المرافقين للقوّات العسكرية الأمريكية، فإنّ ذلك التراث سجّل عشرات النماذج على تلك البرهة الاستثنائية من الخسران المطلق.

وعلى سبيل المثال، كان «تورلينو العجوز»، كاهن قبائل النافاهو، قد وقّع اتفاقية التسليم أمام الرئيس الأمريكي واشنطن ماتيوز، وشرع في سرد قصة الخلق الهندية (إذْ كان العُرف يقتضي ذلك، وفي هذا مغزى روحي وثقافي وعقائدي بالغ الأهمية لجهة الإعراب عن رفض

رواية الأبيض للتاريخ، أو تفعيل اصطراع «الحكايات الكبرى» كما تقول رطانة ما بعد الحداثة)، ثم انتهى إلى إنشاد السطور الشعرية التالية:

*إنني خَجِلٌ أمام الأرض*
*إنني خجل أمام السماوات*
*إنني خَجِلٌ أمام الفجر*
*إنني خَجِلٌ أمام شفق المساء*
*إنني خَجِلٌ أمام السماء الزرقاء*
*إنني خَجِلٌ أمام الشمس*
*وأخجلُ أمام ذلك الشامخ في داخلي، وينطق معي*
*تلك أشياء تبصرني على الدوام*
*ولن أغيب عن ناظرها أبداً.*

وذات يوم، حين كانت الـ CNN تنقل حفل توقيع مذكّرة «واي ريفر» بين عرفات ونتنياهو خريف ١٩٩٨، عادت إليّ خطبة الزعيم الهندي. ليس لأنني وجدت في خطبة «الختيار الفلسطيني» ما يعيد ترجيع أصداء الخجل الفريد الذي شعر به «تورلينو العجوز» أمام الأشياء التي تبصره على الدوام، إذْ قد يكون العكس هو الصحيح. كان ياسر عرفات، في تلك الخطبة تحديداً، مفعماً حتى الثمالة بكلّ ما هو معياري متضارب جدلي في الشخصية الفلسطينية: الدوام، العناد، الذكاء، التعب، التنازل، الكبرياء، اليأس، الأمل، المأساة، الشهادة، المجازفة، المستقبل... الأمر ببساطة أنّ محتوى البرهة كان يذكّر بالأسباب الصانعة لها، مثل النتائج التي تمخضت عنها، وكان بالتالي يذكّر بتلك الأشواك الكبرى التي غصّت بها حنجرة «تورلينو العجوز» وهو يعلن لائحة الخجل المطلق.

ولكن... كما أننا قد لا نُدهش كثيراً حين نقرأ في السّجل التاريخي أن الرئيس الأمريكي واشنطن ماتيوز أصيب بمزيج من الذهول والارتباك والإعجاب حين استمع إلى مرثية الزعيم الهندي، فإننا لم نُدهش إلا قليلاً فقط حين استمعنا إلى الرئيس الأمريكي السابق بيل كلينتون

وهو يتحدث عن «النضال الطويل للشعب الفلسطيني»، بل ويشكر عرفات «على عقود وعقود من تمثيل الشعب الفلسطيني».

أم أننا ينبغي أن نُدهش كثيراً؟ ففي نهاية الأمر، ألم يكن الفلسطيني، طيلة معظم هذه العقود، كائناً غير موجود تارة، أو مجرّد «إرهابي» رجيم طوراً، حتى وضعه عرفات على الأجندة الدولية كما يقول مانديلا؟

أليس مدهشاً حقاً ذلك الترابط الوثيق بين أقداره الشخصية وأقدار شعبه، منذ الولادة وحتى الوفاة... بل في واقعة الوفاة خصوصاً؟ كانت زيارته الأخيرة إلى فرنسا، محمولاً على نقّالة طبيّة، لا تشبه البتة زيارته الرسمية الأولى في ربيع ١٩٨٩ محمولاً على الأكتاف والأكفّ، وضيفاً على سيّد الإليزيه آنذاك فرانسوا ميتيران. وأما الجالية اليهودية فلم تقصّر في احتلال ساحة الكونكورد، ورابطت أمام فندق «كريون» بلافتات تحمل عبارات مقذعة ضدّ «الإرهابي» و«القاتل الملفّع بكوفية دامية»، على الرغم من أن السيدة ماري-كلير منديس فرانس (اليهودية، أرملة السياسيّ الفرنسي الشهير) كانت الجندي المجهول وراء معظم ترتيبات الزيارة.

في تلك الأيام كانت أزمنة المنظمة حبلى بالمتغيّرات الدراماتيكية. فالمجلس الوطني الفلسطيني وافق على صيغة الدولتين، وأعلن ولادة دولة فلسطين المستقلة. وعرفات كان قد حقّق انتصاراً أدبياً على وزير الخارجية الأمريكي آنذاك، جورج شولتز، حين انتقلت الأمم المتحدة إلى جنيف لسماع خطبته بعد أن رفضت الإدارة الأمريكية منحه تأشيرة دخول إلى نيويورك. كذلك كان الحوار الأمريكي-الفلسطيني قد بدأ، وإدارة جورج بوش الأب تحتفل بتدشين عهدها على وقع المطارق التي تُعمل هدماً في المعسكر الاشتراكي ونظام القطبين. آنذاك أيضاً، أطلق وزير خارجية أمريكي آخر، جيمس بيكر، تصريحه الصاعق الذي ذكّر فيه الإسرائيليين بأرقام هواتف وزارة الخارجية الأمريكية إذا قرّرت الدولة العبرية تنحية فكرة إسرائيل الكبرى جانباً.

كان زمناً حافلاً، إذاً، بدت فيه سياسة منظمة التحرير أشبه بكيس بابا نويل المتخم بالهدايا والمفاجآت! وعلى ذمة دافيد ماكوفسكي، الكاتب الإسرائيلي وأحد أبرز معلّقي صحيفة «جيروزاليم بوست»، كان رولان دوما، وزير الخارجية الفرنسي آنذاك، قد عقد جلسة خاصة مع عرفات طالبه فيها أن يقدّم إلى ميتيران هدية لا تقلّ في قيمتها عن هدية المنظمة إلى أمريكا (أي خطاب جنيف الذي ينبذ الإرهاب، أو إعلان ستوكهولم السرّي الذي يؤكد استعداد المنظمة

للعيش بسلام مع إسرائيل، وإدانة جميع أشكال إرهاب الدولة والأفراد، وامتناع المنظمة عن اللجوء إليه في كل حال).

وعلى ذمة ماكوفسكي أيضاً، حدّد رولان دوما طبيعة المطمع الفرنسي، وزوّد عرفات بالكلمة الذهبية التي ستجعل من الهدية قنبلة مدوية وجزاء وفاقاً لحسن الوفادة الفرنسية. الهدية كانت نعي الميثاق الوطني الفلسطيني الذي ينصّ على الكفاح المسلح كأداة لتحرير كامل التراب الفلسطيني، ويعتبر الصهيونية حركة عنصرية فاشية. وأما الكلمة الذهبية فقد كانت Caduc، المصطلح القانوني المراوغ الذي يشتمل على أكثر من معنى، ولكنه يصف محتوى واحداً وحيداً هو أنّ الميثاق باطل أو في حكم الباطل، لأنه تقادَمَ بذاته، ولأن الزمن عفا عليه وألغاه قبل أن تلغيه شرائع البشر.

والأرجح أن عرفات ضحك في عبّه وقال ما معناه: غالي والطلب رخيص! وبالفعل، في مؤتمر صحفي حاشد أطلق «الختيار» الكلمة التي تؤكد على «ختيرة» الميثاق، وفي الأساس كان مندوب المنظمة في باريس آنذاك، إبراهيم الصوص، قد اعتبر الميثاق باطلاً بحكم الأمر الواقع وبحكم قرارات المجلس الوطني في الجزائر، كما يشير محمد حسنين هيكل في كتابه «الأقنية السرية». باطل بالتقادم والختيرة. باطل بحكم الأمر الواقع. باطل لأنّ حكاية الكفاح المسلح دخلت متحف التاريخ من الأبواب الخلفية. وباطل لأنّ الأمم المتحدة سحبت قرارها الشهير الرجيم الذي يعتبر الصهيونية حركة عنصرية.

ويخطر لي، من باب التخمين الصرف بالطبع، أنّ عرفات استعاد برهة العام ١٩٨٩ حين حلّقت طائرته في سماء باريس للمرّة الأخيرة. صحيح أنّ هذه ليست أبرز محطات حياته الحافلة، وثمة ما يفوقها أضعافاً مضاعفة في الرمز والمعنى والدلالة والعاقبة، غير أنّ المكان بالمكان يذكر، والسياق بالسياق أيضاً! ها هو الرجل يأتي من حصار ضيّق في مبنى «المقاطعة» في رام الله، وكان سنة ١٩٨٩ قد أتى من حال مشابهة تمزج المنفى بالحصار. وها هي الولايات المتحدة تقاطعه على نقيض من العالم بأسره تقريباً، مع فارق أنّ فرنسا الرسمية لا تستقبله اليوم سياسياً كما فعلت في الزيارة الأولى، بل طبيّاً وإنسانياً.

في كلّ حال، استرجعتُ شخصياً ذكرى تلك الزيارة الأولى، وأنا أتابع مشاهد النقالة التي كانت تحمل عرفات إلى مستشفى بيرسي، وكان من الواضح أنه لن يعود إلى فلسطين المحتلة إلا

في الأكفان. وإذا كنتُ قد اختلفت مراراً، في العمق وفي الجوهر، مع الكثير من خيارات الراحل السياسية والفكرية والتنظيمية، فإنني في العمق وفي الجوهر أيضاً أخذت أنظر باحترام عميق إلى عرفات الأخير: القائد السياسي الذي رفض إحناء الرأس في كامب دافيد، صيف ٢٠٠٢، طيلة تسعة أيّام من الضغط الهائل الذي مارسه الرئيس الأمريكي السابق بيل كلينتون، على نحو غير مسبوق في تاريخ علاقة البيت الأبيض بقضايا الشرق الأوسط.

حين وصلت تفاصيل التسوية إلى حقوق الشعب الفلسطيني الأساسية، خصوصاً القدس وحقّ العودة والاستيطان، قال عرفات «لا» مدويّة ثابتة راسخة و... مدهشة، إذْ تصدر عن رجل مولع بـ «سلام الشجعان» دون سواه! ولقد استحقّ سخط واشنطن مذاك، ثم تكفّل المجتمع الإسرائيلي بانتخاب أرئيل شارون لكي يذيق عرفات المزيد من ألوان الضغط والمهانة والعزل والحصار، وفي غضون السيرورة بأسرها كان النظام العربي يُجْهز على ما قد يتبقى في نفس الرجل من علائم أمل ومظاهر صمود. قال «لا» حين كانت الـ «نعم» هي المنجاة والإجابة الوحيدة في آن، ولو أحنى الهامة فلعلّنا ما كنّا سنبصره محمولاً هكذا على نقّالة طبيّة، وما كان سيلزم «المقاطعة» محاصَراً، والأرجح أنه كان سيواصل تجواله في عواصم العالم، على متن طائرة أفضل وأحدث، معززاً مكرّماً أكثر بكثير من كلّ أقرانه الحكّام العرب، الذي مسحوا أرقام هواتفه في رام الله، راغبين أو مُكرهين!

هل كان عرفات جديراً بصورة كهذه، أمّ أنّ صورته الأخيرة محمولاً على نقّالة طبيّة إلى المنفى بعد توديع فلسطين، هي بالأحرى الصورة الوحيدة الجديرة بهذا المزيج العبقري الذي جمع أيقونة التحرير إلى الأسطورة والرمز واللغز؟

**إشارات:**

(١) الأعمال التي تمّ التطرّق إليها صدرت في طبعات مختلفة، ولهذا سنكتفي بالناشر الأول وتاريخ الطبعة الأولى.

**(1) Arafat: In the Eyes of the Beholder**

John Wallach، Janet Wallach

Prima Lifestyles، 1991

**(2) Behind the myth: Yasser Arafat and the Palestinian revolution**

Andrew Gowers

W.H. Allen (1990

**(3) Arafat، a political biography**

Alan Hart

Indiana University Press، 1984.

**(4) Arafat's War: The Man and His Battle for Israeli Conquest**.

Efraim Karsh

Grove Press، ، 2003.

**(5) The Mystery of Arafat**.

Danny Rubinstein.

Steerforth Press، 1995.

**(6) Arafat l'irreductible**.

Amnon Kapeliouk.

Fayard Documents 2004